5

الرحيل من جديد

إلى الجزائر!

حططنا على أرض الجزائر بضعة سنوات بعد استقلالها. عُيّن أبي مدرسًا للغة العربية مثل كثير من مشرقيين وفدوا للبلد بعد قرار السلطات تعريب المناهج. مسألة لم تلقَ إعجاب ولا قبول الجميع، ورأى فيها تيار واسع من النخبة الجزائرية عودة إلى الوراء. المشرقيون الذين وصلوا الجزائر، سواء أتوا من مصر أو سورية أو فلسطين أو الأردن، كانوا كلهم في نظر الجزائريين "مصريين" أكلي الفول، ينادونهم في الشارع "فولة فولة"! كنا بالنسبة لهم مخلوقات غريبة الأطوار مثيرة للضحك تساوم على الأسعار حتى في الصيدليات. لم يكترث أهلي والآخرون على الإطلاق لهذه السخرية

ولم يعتبروا أنفسهم معنيين بتلك النظرة، بل على العكس كانوا يشعرون بشيء من الاستعلاء على أهل البلد.

بدت مشكلة الجزائر مع اللغة العربية عويصة! بعد مائة واثنتين وثلاثين سنة من الاحتلال الفرنسي كان اللسان قد ثقل واللغة قد فُرمت! بعضهم لم يكن يتحدث سوى الفرنسية، وآخرون كان كلامهم خليطًا من العربية والفرنسية، تتيه عنهم الكلمات فيتلعثمون بها كما لو أن شيئًا من أحشائهم قد اقتطع، أو تأخذهم الحيرة فيبدون كمن يدور في فراغ أو ينحت في صخر. كأن اللغة مبعث فخرنا ومصدر مجدنا ووسيلتنا نحن عرب المشرق، قد بُترت من وجودهم ورميت بعيدًا!

حططنا الرحال في الرابع والعشرين من كانون الأول في الجزائر بلد المليون شهيد. دخلنا من شرق البلاد محشورين في حافلة ينبعث من محركها ضجيج فظيع. لم تكن كحافلات اليوم نظيفة ومبردة ومجهزة بدورات للمياه، لذلك كانت تضطر للتوقف مرارًا وتكرارًا ليتمكن المسافرون من قضاء الحاجة! كنا استقللناها في جدة لتقودنا إلى باخرة عبرت بنا البحر الأحمر، ثم مررنا بمصر وليبيا وتونس ودخلنا الجزائر من مدينة تبسة.

بمجرد دخولنا الجزائر، أصيب والديّ بصدمة! فهذا البلد المُحمّل بعبق التاريخ له في قلوب المشرقيين مكانة خاصة بسبب بطولات أهله في حرب التحرير، لكن الفرق بينه وبين المشرق كان كبيرًا! بدأت ملامح الاختلاف تنكشف تدريجيًا عند المرور بليبيا وأخذت تتضح أكثر في تونس لتبدو على

اشدها في الجزائر. لقد كان المغرب العربي مغايرًا تمامًا لكل ما صادفناه وعرفناه، كانت ملابس الناس وحركاتهم من أبرز ما آثار انتباهنا! بدوا أكثر رزانة في زيهم ولا سيما مع "القشابيا" المصنوعة من وبر الجمل والتي كان الرجال يرتدونها في الشتاء، وكانت طريقتهم غريبة في الاستناد على شجرة أو جدار اثناء وقوفهم إذ يبدون منحنين جامدين ساكنين، كانوا قليلي الحركة والايماء عند الكلام على عكسنا نحن المشارقة.

شكّل الوصول للجزائر صدمة جديدة لي ولأخي، كانت بلدًا جميلًا مضيئًا ومفعمًا بالأمل في تلك الأيام، وقد بانت لنا في فترة وصولنا كأي مدينة أوربية بطابعها الغربي واحتفالاتها بأعياد الميلاد ورأس السنة. المحلات تشعّ بزينتها وبشجرة العيد وكل أنوع الحلويات الشهية المعروضة في واجهاتها. كانت لغة الناس غريبة على أسماعنا ولم نكن نفهم كلمة من أحاديثهم التي اختلطت فيها العربية والفرنسية والقبائلية في مزيج عجيب.

استقر بنا المقام عند خالي وخالتي اللذين كنا نعيش معهما في غزة. كانا محبين للسفر واكتشاف العالم. ذهبا أولًا للمغرب، البلد الذي يوحي لنا كمشرقيين بكل ما هو مثير وجذاب وبعيد عن المتناول، إنه البلد حيث فرنسا حاضرة بقوة وحيث يعيش عرب وبربر ومسلمون. لكن، كم هم مختلفون!

بقي الخال والخالة هناك بعض الزمن، ثم غادرا للجزائر وأتاهما الحظ للمشاركة في حماس الجزائريين عشية الاستقلال. عند وصولنا

أقمنا عندهما في حي البيار الراقي. كانت مشاعر الكره التي طبعت اللقاء بين الصهر وعائلة أمي لا تختلف في حدتها عن تلك التي طبعت لحظة الوداع بينهما حين غادر غزة. لقد بقي أبي بنظرهما شخصًا فظًا متواضعًا لا يليق بمستوى أختهما. كان خالي عثمان يخاطب أمي بالقول "أنتِ أختي من لحمي ودمي ستبقين هنا مع أولادك مهما طال الوقت، أما هو، فلا أقدر على احتماله!"، وغالبًا ما كان يلحق كلامه بعبارة "ليسامح الله الشيخ فايز الذي فرض علينا هذا الزواج".

لكنهم وحفاظًا على المظاهر عثروا لأبي على عمل كمعلم في بلدة تبعد أربعين كيلومترًا عن الجزائر العاصمة. اعتبرت تلك المسافة الحد الأدنى المطلوب تواجده بين الرجلين! هكذا، عشنا عدة سنوات في بلدة صغيرة ولكنها قريبة من العاصمة. كانت خالتي وخالي يأتيان لزيارتنا مرة في الأسبوع محملين بالهدايا ثم يغادران بعد جدال مع أبي في أغلب الأحيان، وكان هو يعقّب "برجوازيين أرذال، لاحقيني على طول! أنا على أية حال سأرجع إلى فلسطين".

لكن الحرب قامت في يوم من عام 1967. في الخامس من حزيران تقرر مصيرنا النهائي وبات المنفى لنا أبديًا لا رجوع عنه. احتلت إسرائيل غزة وما تبقى من فلسطين، كما قرر الإسرائيليون –وكانت لديهم كل القدرة على فعل هذا– بأن لا حق بالعودة لكل الفلسطينيين الموجودين خارج فلسطين. وهكذا مُحينا بكل بساطة من الوجود، نحن كلنا أمي وأبي وخالي

وخالتي وزوجة خالي وابنتاه وأخي وأنا وجدتي وكل عائلتي، لم يعد لنا وجود. نحن اللامرئيون، الممحيون من السجلات بل الممحيون بكل بساطة، علينا تدبير حالنا لنجد هوية أخرى! ولم نكتف بسوء التصرف لتحقيق ذلك بل أفلحنا في فعل ما نال إعجاب الإسرائيليين بالتأكيد. كان فشلنا تامًا، فلسطينيون كنا وفلسطينيون بقينا، غير قابلين للذوبان في محيطنا العربي مثل أعواد القرفة وجذور الزنجبيل.

سنوات طويلة تمر في الجزائر، نحتفظ بمشاكلنا الصغيرة والكبيرة، تصحبنا تؤنسنا في أيامنا، جدال جهنمي مقيت بين أبي وأمي وحياة مجهضة لأمي وأخبار من فلسطين سيئة، سيئة على الدوام.

بلد يختفي وشعب يمسي غريبًا على أرضه.